

التبادل العلمي بين المغرب والمشرق في العصور الوسطى: دراسة في حركة الرحلات وأثرها الحضاري

أحمد علي دعبا¹ ومحمود عبدالمجيد مجبر²

تاريخ الاستلام: 2026.06.08، تاريخ القبول: 2026.08.10، تاريخ النشر: 2026.09.30

الملخص:

يتناول هذا البحث ظاهرة التبادل العلمي بين المغرب والمشرق في العصور الوسطى، مع التركيز على دور الرحلة العلمية في بناء وحدة معرفية وحضارية داخل العالم الإسلامي. ويهدف البحث إلى تحليل الدوافع التي حفزت العلماء على الارتحال، واستكشاف المسارات والمراكز العلمية التي شكلت محاور هذا التبادل، إضافة إلى بيان أثره في تطور العلوم النقلية والعقلية والروحية. وقد اعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال تتبع حركة العلماء والرحالة، وتحليل نصوص الرحلات وكتب التراجم، وربطها بالسياقات السياسية والاجتماعية التي أسهمت في ازدهار أو تراجع هذا التبادل. وتوصل البحث إلى أن الرحلة العلمية لم تكن مجرد وسيلة لتحصيل العلم، بل كانت مؤسسة حضارية أسهمت في كسر العزلة الجغرافية، وتوحيد المناهج التعليمية، وترسيخ وحدة اللغة والعقيدة. كما أظهر أن العلاقة بين المغرب والمشرق تطورت من التلقي إلى التأثير المتبادل، حيث ساهم علماء المغرب في إثراء الفكر الإسلامي وإعادة تصدير المعرفة بعد تطويرها.

¹ - قسم التاريخ - كلية الآداب الخمس - جامعة المرقب aadabaj@elmergib.edu.ly

² قسم التاريخ - كلية الآداب الخمس - جامعة المرقب mamojbar@elmergib.edu.ly

كما أبرز البحث دور هذا التبادل في حفظ التراث الإسلامي من الضياع، وتطوير المناهج العلمية، وتحقيق التكامل بين العلوم المختلفة، إضافة إلى مساهمته في نقل المعارف إلى أوروبا عبر الأندلس.

الكلمات المفتاحية: التبادل العلمي، الرحلة العلمية، المغرب الإسلامي، المشرق الإسلامي، العصور الوسطى، الحضارة الإسلامية.

Scholarly Exchange Between the Maghreb and the Mashriq During the Middle Ages: A Study of Travel Movements and Their Civilizational Impact
Ahmed Ali Dabaaj and Mahmoud Abdelmajid Mojabber

Received: Jun. 08, 2026; Accepted: Aug. 10, 2026 Puplished: Sep. 30, 2026

Abstract:

This study examines the phenomenon of **scientific exchange between the Islamic West (Maghreb) and East (Mashreq) during the Middle Ages**, with a particular focus on the role of scholarly travel in shaping a unified intellectual and civilizational framework within the Islamic world. The research aims to analyze the motivations behind scholars' journeys, identify the major routes and centers of knowledge, and explore the impact of this exchange on the development of transmitted, rational, and spiritual sciences.

The study adopts a historical-analytical approach by tracing the movement of scholars and travelers, analyzing travel literature and biographical sources, and linking them to the political and social contexts that facilitated or hindered such exchanges.

The findings reveal that scholarly travel was not merely a means of acquiring knowledge, but a civilizational institution that contributed to overcoming geographical barriers, unifying educational systems, and reinforcing linguistic and doctrinal unity. The study also demonstrates

that the relationship between the Maghreb and the Mashreq evolved from one of reception to mutual influence, with Maghrebi scholars playing a significant role in refining and retransmitting knowledge.

Furthermore, the research highlights the role of this exchange in preserving Islamic intellectual heritage, advancing scientific methodologies, fostering interdisciplinary integration, and contributing to the transmission of knowledge to Europe through al-Andalus.

Keywords: Islamic Civilization Maghreb, Mashreq, Middle Ages, Scientific Exchange, Scholarly Travel

المقدمة

أهمية الموضوع وسياقه التاريخي:

يمثل التبادل العلمي بين المغرب والمشرق في العصور الوسطى ظاهرة حضارية فريدة، تجاوزت حدود النقل المعرفي المجرد لتصبح أداة لترسيخ وحدة الأمة الإسلامية. ففي الوقت الذي كانت فيه الجغرافيا تفرض حواجزها، والسياسة ترسم حدود دول متباينة (من أمويين، وعباسيين، ومرابطين، وموحدين)، جاءت "الرحلة العلمية" لتكون الشريان الحيوي الذي يربط أطراف العالم الإسلامي من قرطبة وفاس غرباً إلى بغداد ونيسابور شرقاً.

تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يسلط الضوء على "الدبلوماسية المعرفية" التي قادها العلماء والرحالة؛ حيث لم تكن الرحلة مجرد انتقال جسدي، بل كانت انتقالاً للمذاهب، والأسانيد، والمخطوطات، والمناهج التدريسية. إن دراسة هذا التبادل تبرز كيف استطاع المغرب الإسلامي أن يتحول من "مستورد" للمعرفة في بدايات العصر الإسلامي إلى "منارة" تصدر النوابع والعلوم إلى المشرق، مما خلق حالة من التوازن الحضاري والاندماج الفكري.

إشكالية البحث

رغم تباعد الشقق الجغرافية واختلاف الأنظمة السياسية التي حكمت جناحي العالم الإسلامي، إلا أن هناك "هوية علمية موحدة" تشكلت وبرزت بوضوح خلال العصور الوسطى. ومن هنا تتبلور إشكالية البحث في التساؤل الرئيس التالي : كيف ساهمت "الرحلة في طلب العلم" في كسر طوق العزلة الجغرافية وتذويب الفوارق الإقليمية لبناء صرح معرفي إسلامي موحد؟

ويتفرع عن هذا التساؤل أسئلة فرعية منها:

- ما هي الدوافع الكامنة وراء مخاطرة العلماء بحياتهم لقطع آلاف الأميال نحو المشرق أو المغرب؟

- كيف أثرت هذه الرحلات في "توطين" المذاهب الفقهية (المالكية نموذجاً) والعلوم العقلية؟

- إلى أي مدى ساهمت الرحلة في خلق "تخبة عابرة للحدود" تدين بالولاء للعلم قبل الولاء للكيانات السياسية؟

منهج البحث

لتحقيق أهداف الدراسة ومعالجة إشكالياتها، اعتمد البحث على المنهج التاريخي التحليلي، وذلك عبر:

- الرصد التاريخي :من خلال تتبع حركة الرحالة والعلماء واستقراء نصوص الرحلات وكتب التراجم والطبقات.

- التحليل الاستراتيجي: عبر ربط حركة هؤلاء العلماء بالسياقات السياسية والاقتصادية التي يسرت أو أعاقَت تنقلهم.
- الاستنتاج الحضاري: لتقييم أثر هذا التبادل على تطور العلوم في كلا الجناحين، ومدى مساهمته في الحفاظ على التراث العلمي العربي الإسلامي من الضياع خلال فترات الأزمات والحروب (كالحروب الصليبية أو الزحف المغولي).

المبحث الأول: دوافع الرحلة العلمية وسياقاتها التاريخية: لم تكن الرحلة من المغرب إلى المشرق مجرد انتقال مكاني، بل كانت "رحلة وجودية" يسعى من خلالها العالم المغربي لإثبات ذاته العلمية والحصول على "الشرعية المعرفية". ويمكن حصر هذه الدوافع في ثلاثة محاور رئيسية:

1- الوازع الديني: "رحلة الحج" كمنطلق أساسي لطلب العلم:

لم تكن فريضة الحج بالنسبة للعالم وطالب العلم في المغرب والأندلس مجرد أداء لنسك تعبدى، بل كانت بمثابة "الموسم الثقافي الأكبر" و"المؤتمر العلمي الدولي" الذي يجمع نخب الأمة. ومن هنا برزت "الرحلة الحجازية" كظاهرة فريدة في التاريخ الإسلامي⁽¹⁾.

أ. الحج كبوابة للاتصال الكوني:

كان الحرمان الشريفان (مكة والمدينة) يمثلان نقطة الالتقاء الوحيدة التي تنوب فيها المسافات الجغرافية. بالنسبة للمغاربة، كانت الرحلة تبدأ بنية التعبد، لكنها

(1) أحمد شوقي بنين، الرحلة في الأدب العربي: نشأتها وتطورها، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1980م، ص23.

سرعان ما تتحول إلى "برنامج تعليمي مكثف". ففي أروقة الحرم المكي وبساط المسجد النبوي، كان المغربي يلتقي بعلماء بغداد، ونيسابور، والقاهرة، ودمشق، مما أتاح له:

- سماع الحديث: من كبار المحدثين الذين لا يغادرون الحرمين.
- المناظرة: مع فقهاء المذاهب الأخرى (الشافعية، الحنفية، والحنابلة)، مما وسع مدارك الفقيه المالكي المغربي⁽¹⁾.
- ب. "المجاورة" كمنهج تربوي وعلمي: استحدث علماء المغرب تقليداً عُرف بـ "المجاورة"، وهو البقاء في مكة أو المدينة لسنوات بعد انقضاء موسم الحج.
- الأثر العلمي: هذه المجاورة سمحت لعلماء مثل أبي بكر بن العربي والقاضي عياض (عبر شيوخه) بنقل "أمهات الكتب" المشرقية إلى المغرب بعد أن قرؤوها وصححوها على أيدي مؤلفيها أو تلامذتهم في الحجاز.
- الشرعية الروحية: العودة من "المجاورة" كانت تمنح العالم في المغرب هيبة دينية وعلمية مضاعفة، حيث يُنظر إليه كحامل لـ "بركات الحرمين" وأسانيدهما العالية⁽²⁾.

ج. الطريق إلى مكة: "سلسلة من حلقات الدرس:"

(1) عبد الهادي التازي، رحلات مغربية في المشرق، منشورات وزارة الأوقاف، الرباط، 1994م، ص 64.
(2) محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث (في جانب الحركة العلمية)، دار توبقال، الدار البيضاء، 1984م، 123.

لم يكن طلب العلم ينتظر الوصول إلى مكة، بل كان يبدأ منذ اللحظة التي يغادر فيها العالم بيته في فاس أو تلمسان:

• المدن المحطات: كان الرحالة المغربي يتوقف في كل مدينة كبرى (القيروان، تلمسان، الإسكندرية، القاهرة) لزيارة شيوخها والحصول على إجازاتهم.

• التراكم المعرفي: وبذلك، يصل الحاج المغربي إلى الحجاز وقد تشبع بمعارف الشمال الإفريقي ومصر، ويغادرها محملاً بمعارف المشرق والحجاز، مما جعل من رحلة الحج "خيطاً ناظماً" لعلوم الأمة⁽¹⁾.

د. أثر "الرحلة الحجازية" في توحيد المذهب:

ساهم الوازع الديني في الحفاظ على نقاء المذهب المالكي في المغرب؛ فالتواصل المستمر مع "دار الهجرة" (المدينة المنورة) جعل الفقه المالكي المغربي مرتبطاً بأصوله الأولى، وهو ما منع ظهور انشقاقات مذهبية كبرى في الغرب الإسلامي، وحافظ على وحدة العقيدة والمنهاج⁽²⁾.

2- البحث عن الأسانيد العالية: الرغبة في ملاقة كبار الشيوخ

في العصور الوسطى، لم يكن العلم يُقاس بمجرد القراءة أو الاطلاع، بل بـ "المشافهة" و"علو الإسناد"*. فكان العالم المغربي يرى أن بينه وبين "الحقيقة العلمية" حجاباً لا يرفعه إلا اللقاء المباشر بأساطين العلم في مراكزهم المشرقية (بغداد، مكة، القاهرة).

(1) عبد الهادي التازي، رحلات مغربية في المشرق، مرجع سابق، ص34.

(2) مجلة دعوة الحق: (سلسلة مقالات حول العلاقات الثقافية بين المغرب والمشرق)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ص110.

أ. مفهوم "علو الإسناد" كدافع للرحلة:

كانت غاية المنى لدى طالب العلم في المغرب هي الوصول إلى "الإسناد العالي"، وهو الذي قلّ فيه عدد الوسائط بين الراوي ومن روى عنه (النبي ﷺ أو صاحب المصنف)⁽¹⁾.

• جاذبية المشرق: بما أن المشرق كان هو مهبط الوحي ومنبع التصنيف الأول، فقد استوطنه كبار الشيوخ الذين يملكون أسانيد متصلة ومباشرة.

• الشرعية العلمية: الحصول على إجازة "عالية" من شيخ في بغداد أو المدينة المنورة كان يمنح العالم المغربي عند عودته تفوقاً أكاديمياً على أقرانه، ويجعل حلقة العلمية في جامع القرويين أو قرطبة الأكثر ازدحاماً بالطلاب.⁽²⁾

ب. الرحلة لملاقاة "أصحاب الأصول": لم يكن العالم المغربي يكتفي بنسخة من كتاب "صحيح البخاري" أو "موطأ مالك"، بل كان يرحل لسمع الكتاب من شخص سمعه من تلميذ المصنف مباشرة:

• تثبيت النص: كانت الرحلة تهدف إلى "تصحيح النسخ" ومقابلتها على أصول الشيوخ المشرقيين، لضمان خلوها من التحريف الذي قد يقع بسبب النسخ اليدوي الطويل.

(1) أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص88

(2) المرجع السابق، ص90.

- نيل "الإجازة": كانت الإجازة بمثابة "شهادة دكتوراه" معاصرة، توثق أن الطالب قد أخذ العلم عن أهله، مما يعطيه الحق في التدريس والإفتاء بمرجعية رصينة.⁽¹⁾

ج. بغداد والقاهرة: قبلة "الأسانيد الموسوعية": بينما كان الحجاز مقصداً لأسانيد الحديث، كانت بغداد (بمدرستها النظامية) والقاهرة مقصداً لأسانيد العلوم العقلية، وأصول الفقه، واللغة:

- لقاء الشيوخ: رحلة علماء مثل ابن العربي المعافري (ت 543هـ) الذي جاب المشرق ولقي كبار الأئمة كالغزالي في بغداد، مثلت تحولاً مفصلياً؛ إذ عاد "بأسانيد الغزالي" وفكره إلى المغرب، مما أحدث ثورة في المناهج المغربية.⁽²⁾

- المناظرة الحية: كانت الرغبة في ملاقات الشيوخ تهدف أيضاً إلى حضور "المجالس والمناظرات"، حيث يتعلم الرحالة المغربي آداب البحث وطرق الاستدلال التي لا يمكن تعلمها من بطون الكتب.

د. الأثر النفسي والاجتماعي للعائدين بالأسانيد: كان العالم العائد من المشرق محملاً بـ "الفهرسة" (وهي ثبت بأسماء شيوخه وأسانيده) يُستقبل استقبال الفاتحين:

- تحول المصعب إلى منبع: بفضل هؤلاء "الباحثين عن الأسانيد"، تحول المغرب والأندلس بمرور الوقت إلى مراكز تملك أسانيد عالية خاصة بها، مما

(1) حسنى محمد حسين، أدب الرحلة عند العرب، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، عمان، 1403هـ-1983م، ص24.

(2) المرجع السابق، 27.

جعل طلاب العلم من أقطار أخرى يرحلون إليها، محققين بذلك توازناً في القوى العلمية بين الشرق والغرب.

خلاصة هذا المحور: إن البحث عن "الأسانيد العالية" لم يكن ترفاً فكرياً، بل كان سعياً نحو "الجودة الأكاديمية" وتوثيقاً للمعرفة في عصر لم تكن فيه المطابع موجودة. لقد كان الرحالة المغربي هو "الرابط الحي" الذي حفظ للأمة وحدة نصوصها ودقة انتقال علومها عبر آلاف الأميال.

3- العوامل السياسية: استقرار الطرق وأثره على حركة العلماء لعبت الجيوبوليتيك في العصور الوسطى دوراً حاسماً في تشكيل خارطة التبادل العلمي. فبينما كانت الانقسامات السياسية تمزق الأوصال أحياناً، استطاعت القوى الكبرى في المغرب والمشرق توفير "الأمن القومي المعرفي" الذي سمح للعلماء بالتنقل بحرية⁽¹⁾.

أ. دور الإمبراطوريات الكبرى (المرابطون والموحدون):
شهد العصر المرابطي والموحدي توحيداً سياسياً شاملاً للمغرب والأندلس، مما خلق "فضاءً سياسياً واحداً" امتد من نهر التاج شمالاً إلى حدود السنغال جنوباً، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود برقة شرقاً.⁽²⁾
• الأمن الشامل: هذا التوحيد قضى على القلاقل القبلية والحدود الصغيرة، مما أتاح للعلماء التنقل بين حواضر الغرب الإسلامي (فاس، مراكش، تلمسان، سبتة) كأنهم في مدينة واحدة، قبل انطلاقهم نحو المشرق.

(1) محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1992م، ص87.

(2) محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق، المرجع السابق، ص90.

- دبلوماسية العلم :حرص سلاطين المغرب على كسب ود الخلافة العباسية (كما فعل المرابطون) أو منافستها (كما فعل الموحدون)، وفي كلتا الحالتين كانت "الرحلة العلمية" هي القناة الدبلوماسية التي تضمن استمرار الاعتراف المتبادل والروابط الثقافية⁽¹⁾.

ب. مأسسة "أمن الطرق" والقوافل:

كانت الدولة في المغرب والمشرق تدرك أن "طريق العلم" هو نفسه "طريق التجارة"، فعملت على:

- بناء الرباطات والخانات: أقيمت المحطات المحصنة على طول ساحل شمال إفريقيا وفي سيناء والحجاز لتأمين المسافرين من قطاع الطرق ومن تقلبات المناخ.

- نظام "القافلة": كان العلماء ينخرطون ضمن قوافل تجارية أو قوافل الحج الرسمية التي تحميها "خفارة" (حراسة) عسكرية، مما قلل من مخاطر الرحلة وحولها إلى رحلة جماعية تسمح بالمذاكرة والمناقشة حتى أثناء السفر⁽²⁾.

ج. رعاية الحكام للعلماء الرحالة:

لم يقتصر دور السياسة على التأمين، بل امتد للتمويل والتحفيز:

(1) عبد العزيز بن عبد الله، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، ط1، دار الناشر لمعرفة، الرباط، 2001م، ص86.
(2) عبد اللطيف الصعيدي عبد الحكم، الرحالة في الاسلام أنواعها وآدابها، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1416هـ-1997م، ص111.

• المنح السلطانية: كان سلاطين المغرب، وخاصة الموحدين الذين عُرفوا بشغفهم بالعلوم العقلية، يمولون رحلات الطلاب الموهوبين إلى المشرق ليعودوا بخبرات في الطب والهندسة والفلك.

• استقطاب العائدين: كان استقرار الدولة وقوتها المالية يغري العلماء المشاركة بالهجرة إلى المغرب، كما كان يضمن للعائدين المغاربة "وظائف مرموقة" في القضاء والوزارة، مما جعل الرحلة "مشروعاً مهنيّاً" ناجحاً برعاية الدولة⁽¹⁾

د. أثر "الهدنة" والاتفاقيات الدولية:

حتى في أحلك فترات الصراع (مثل الحروب الصليبية في المشرق أو حروب الاسترداد في الأندلس)، كانت هناك "اتفاقيات غير مكتوبة" تحترم حركة العلماء والحجاج.

• الاستثناء العلمي: وُجد نوع من "الحصانة" غير الرسمية للعلماء؛ فغالباً ما كانت الطرق تُفتح لمرور قوافل العلم حتى بين الدول المتنافسة، لإدراك الجميع أن المعرفة مصلحة عليا تتجاوز الخصومات الآنية.⁽²⁾

خلاصة المبحث: إن تضافر الوازع الديني مع الشغف العلمي والدعم السياسي خلق "حالة من السيولة المعرفية" لم تعرفها حضارة أخرى في تلك العصور. لقد كانت

(1) عصام الدين الروق القعي، تاريخ المغرب والأندلس، الناشر مكتبة تحفة الشروق، القاهرة، 1984م، ص68.

(2) عواطف بنت محمد يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين (11-12هـ)، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1429هـ-2008م، ص38.

الرحلة هي التي جعلت "العقل المغربي" ينمو في أحضان "الأصول المشرقية"، قبل أن يستقل بشخصيته الحضارية لاحقاً.

المبحث الثاني: مراكز الاستقطاب العلمي (المسارات والوجهات)
ارتبطت حركة العلماء بخارطة حضارية ذكية، حيث تشكلت أقطاب علمية في المشرق كانت بمثابة "المصدر"، وأقطاب في المغرب كانت بمثابة "المصب" والمنطلق في آن واحد.

1- المراكز المشرقية: حواضر الأصول والأسانيد
لم تكن المدن المشرقية في نظر الرحالة المغربي مجرد نقاط جغرافية، بل كانت "مخازن للوحي" ومستقراً لورثة الأنبياء. وقد تشكلت خارطة الاستقطاب المشرقي من ثلاث حواضر كبرى، لكل منها تخصصها وجاذبيتها الخاصة:

أ. الحرمان الشريفان (مكة والمدينة): مدرسة الأثر والحديث
كانت مكة والمدينة تمثلان "الشرعية الروحية والعلمية" المطلقة.

- المدينة المنورة (دار الهجرة): حظيت بمكانة استثنائية لدى علماء المغرب لكونها مهد المذهب المالكي. كان الرحالة يحرصون على سماع "الموطأ" في المسجد النبوي، بالقرب من روضة المصطفى ﷺ، بحثاً عن "بركة المكان" مع "علو الإسناد".

- مكة المكرمة (الملتقى العالمي): كانت مكة تتحول في موسم الحج إلى "جامعة كونية مفتوحة". هنا لقي المغاربة شيوخاً من وراء النهر ومن أقاصي

الهند، مما أتاح لهم سماع كتب السنة الستة (البخاري ومسلم وأصحاب السنن) بأسانيد متصلة لا تتوفر في غيرها⁽¹⁾.

ب. القاهرة والجامع الأزهر: محطة التلاقح الفكري
بعد استقرار المذهب السني في مصر، تحولت القاهرة إلى "المصفاة" التي تمر عبرها علوم المشرق إلى المغرب.
• الأزهر الشريف: صار القبة الأولى للمغاربة بعد الحجاز، نظراً لموقعه الاستراتيجي كبوابة للمشرق. تميزت القاهرة بوجود "أروقة" خاصة للمغاربة، مما سهل استقرارهم وفتحهم للطلب.

• مدرسة الفقه واللغة: في القاهرة، نهل المغاربة علوم النحو من مدرسة ابن هشام واللغويين الكبار، وشاركوا في مجالس الفقه الشافعي والحنبلي، مما أغنى ملكتهم الفقهية بالاطلاع على المقارنات المذهبية⁽²⁾.

ج. بغداد والمدرسة النظامية: عاصمة العلوم العقلية والأصول
رغم بعد المسافة، ظلت بغداد في وجدان الرحالة المغربي هي "دار السلام" وعاصمة الخلافة التي لا يكتمل علم العالم إلا بزيارتها.

(1) العلمي عبد الرحيم، مجتمع مكة في أدب الرحلات المغربية، كلية الأدب والعلوم الانسانية بفاس، المملكة المغربية، 1416م، ص134.

(2) عبد اللطيف الصعيدي عبد الحكم، الرحالة في الاسلام أنواعها وأدائها، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1416هـ-1997م، ص78.

• المدرسة النظامية: مثلت ذروة النظام الأكاديمي في العصور الوسطى. رحل إليها المغاربة لطلب علم "أصول الفقه" و"علم الكلام" (الأشعري)، وتأثروا بنظام "المدارس الموقوفة" الذي نقلوه لاحقاً إلى بلادهم.

• خزائن الكتب: كانت مكتبات بغداد (مثل بيت الحكمة وما تلاها) مصدراً لنقل المخطوطات النادرة في الطب، والفلك، والفلسفة، وهي العلوم التي نبغ فيها المغاربة والأندلسيون لاحقاً بفضل الأصول التي جلبوها من بغداد⁽¹⁾.

د. دمشق وحواضر الشام: رباط العلم والجهاد
برزت دمشق كمركز استقطاب خاصة في فترات الحروب الصليبية، حيث امتزج فيها طلب العلم بالمرابطة في الثغور.
• المدرسة الأموية: كانت مركزاً كبيراً لعلوم القراءات والقرآن.

• أثر الرحالة المغاربة: استقر كثير من المغاربة في دمشق (مثل ابن عربي الصوفي لاحقاً)، وأسسوا فيها مدارس ونشروا فيها مؤلفاتهم، مما جعل من دمشق نموذجاً حياً لـ "استيطان المعرفة المغربية" في قلب المشرق⁽²⁾.

خلاصة هذا القسم: كانت هذه المراكز المشرقية بمثابة "الأكاديميات العليا" التي تصدق على علم العالم المغربي. فمن حصل على إجازات مكة، وناظر في

(1) الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط3، دار المعرفة بالقاهرة، 1987م، ص48.

(2) حسين نصار، أدب الرحلة، ط1، الشركة المصرية العلمية للنشر، لنجمان، 1991م، ص73.

الأزهر، وسمع في النظامية ببغداد، عاد إلى المغرب وهو يحمل صفة "العالم الموسوعي" الذي يجمع بين أصالة الحجاز، وعمق بغداد، وحيوية القاهرة.

2- المراكز المغربية: منارة الغرب الإسلامي

لم يكن المغرب مجرد مستهلك لعلوم المشرق، بل تحولت مدنه إلى "أقطاب جاذبة" استقطبت طلاب العلم من الأندلس وإفريقيا جنوب الصحراء، بل ومن المشرق نفسه في مراحل لاحقة.

أ. فاس وجامع القرويين: معقل المذهب واللغة

تُعد فاس "مشرق المغرب" بامتياز، ومثل جامع القرويين الذروة العلمية للغرب الإسلامي.

- تخصص المذهب والحديث: اشتهرت فاس بكونها حارسة المذهب المالكي، حيث تميز علماءها بالدقة في الفروع الفقهية والبراعة في علوم اللسان العربي.

- جامعة عالمية: بفضل الرحالة العائدين، أصبحت القرويين تمتلك "أسانيد" لا تقل قوة عن أسانيد بغداد، مما جعلها مقصداً لطلاب العلم الذين يبحثون عن إجازات مغربية في القراءات والنحو⁽¹⁾.

مراكش: عاصمة العلوم العقلية والفلسفة

تحت ظلال الإمبراطورية الموحدية، برزت مراكش كمركز لاستقطاب نوع مختلف من المعرفة:

(1) أحمد ديب، المدخل لدراسة الفقه المالكي، دار ابن حازم، بيروت، لبنان، ط 1، 2014، ص 99.

• احتضان الفلسفة والطب: في الوقت الذي كانت فيه بعض حواضر المشرق تضيق بالعلوم العقلية، فتحت مراکش أبوابها لابن رشد وابن طفيل. أصبحت مراکش "المختبر العلمي" الذي طور الطب والرياضيات، مستفيدة من الترجمات المشرقية لتصنع نهضة فلسفية أثرت في العالم لاحقاً.

• البيمارستانات: أقام الموحدون في مراکش بيمارستانات (مستشفيات تعليمية) على نمط بيمارستانات بغداد والقاهرة، مما جعلها قبلة لدارسي الطب من كل مكان⁽¹⁾.

ج. تلمسان: واسطة العقد وبوابة الشرق
لعبت تلمسان دوراً استراتيجياً كـ "محطة استراحة علمية" ومركز تبادل حيوي:
• الملتقى الثقافي: لكونها تقع على طريق القوافل المتجهة شرقاً، كانت تلمسان أول مدينة مغربية تستقبل العلماء المشاركة القادمين، وآخر محطة يودع فيها المغاربة بلادهم.

• بروز العائلات العلمية: اشتهرت تلمسان ببيوتات العلم (مثل آل المقرئ) الذين رحلوا للمشرق وعادوا ليوطنوا علوم الكلام والمنطق، مما جعلها مركزاً متميزاً في الدراسات الأصولية⁽²⁾.

(1) إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9 هـ/ 15 م، ج 1 - 2 دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط 1، 2000، ص55.

(2) المرجع السابق، 58.

- د. سبتة وسجلماصة: ثغور العلم والتجارة
- سبتة: كانت "جسر العبور" بين الأندلس والمغرب والمشرق. برز فيها القاضي عياض، وحولت موقعها البحري إلى ميزة علمية جعلتها تمتلك أكبر حركة لنسخ المخطوطات وتداولها.
 - سجلماصة: في أقصى الجنوب، كانت سجلماصة هي التي تربط المعرفة الإسلامية بأعماق إفريقيا، حيث كان يمر عبرها العلماء المتوجهون لنشر الإسلام والعلم في بلاد السودان الغربي⁽¹⁾.
- خلاصة هذا القسم: إن وجود هذه المراكز المغربية المتنوعة (فاس للفقهاء، مراكش للفلاسفة والأطباء، تلمسان للأصوليين) خلق "توازناً معرفياً" مع المشرق. وبفضل هذه الحواضر، لم يعد المغرب "تلميذاً" للمشرق، بل صار "شريكاً" في صياغة الحضارة الإسلامية، حيث أصبحت الإجازة المغربية من القرويين تضاهي في قيمتها الإجازة النظامية من بغداد.
- 3- طرق الرحلة: المسارات والمخاطر
- كان أمام العالم المغربي المتوجه شرقاً خياران أحلاهما مرّاً؛ فإما مسالك برية موحشة وطويلة، أو مسالك بحرية محفوفة بالأنواء والقرصنة.
- أ. المسار البري: "طريق العلماء والقوافل"
- وهو المسار الأكثر شيوعاً، ويُعرف بطريق الساحل الشمال أفريقي.

(1) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة الأعمال الفكرية، ، 2004، ص124.

• المسار الجغرافي: يبدأ من فاس أو مراكش، مروراً بـ تلمسان، ثم تونس (القيروان)، ف طرابلس وبرقة، وصولاً إلى الإسكندرية والقاهرة، ومنها عبر سيناء إلى الحجاز.

• الميزة العلمية: كان هذا الطريق يمثل "جامعة مفتوحة"؛ إذ يتوقف العالم في كل حاضره يمر بها، فيسمع من شيوخها ويُسمعهم، مما جعل الطريق نفسه أداة للتحصيل العلمي قبل الوصول إلى المقصد النهائي⁽¹⁾.

ب. المسار البحري: "طريق السرعة والمخاطرة"
كان العلماء يركبون السفن من موانئ مثل سبتة، بجاية، أو تونس باتجاه ثغر الإسكندرية.

• الميزة: اختصار الوقت والجهد مقارنة بالمسير البري الذي قد يستغرق شهوراً.

• العيوب: كان هذا المسار يخضع لتقلبات الأحوال الجوية، والأهم من ذلك، خطر القرصنة الأوربية (خاصة في فترات الحروب الصليبية)، حيث كان

(1) حميدي عبد المنعم محمد حسين، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب و الأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، 1997، ص86.

العلماء يقعون أحياناً في الأسر، ومثال ذلك ما حدث للرحالة الشهير الحسن الوزان (وإن كان في فترة متأخرة).⁽¹⁾

ج. المخاطر والتحديات الجسيمة

واجه العلماء الرحالة ثلاثة أنواع من التحديات التي صقلت سيرهم الذاتية:

1. المخاطر الطبيعية والأوبئة: تقلبات الطقس في الصحارى أو البحار، ونقص المياه، وانتشار الأوبئة في التجمعات (مثل الطاعون)، وهو ما أدى إلى وفاة العديد من العلماء في طريقهم قبل بلوغ مكة.

2. الاضطرابات السياسية والأمنية: رغم جهود الدول الكبرى، إلا أن "الفترات الانتقالية" أو ضعف السلطة المركزية في بعض الأقاليم كان يُعرض القوافل لهجمات الأعراب أو قطاع الطرق، مما يدفع العلماء أحياناً للتخفي أو تغيير المسارات.

3. عناء "الغربة المالية": كان طالب العلم يعتمد على "التمويل الذاتي" أو الصدقات وأوقاف المدارس. وكثيراً ما نفدت مؤن العلماء في منتصف الطريق، مما يضطرهم للعمل في النسخ أو التدريس في المدن التي يمرون بها لتأمين نفقات إكمال الرحلة.⁽²⁾

(1) جمال الدين فالخ الكيلاني، الرحلات و الرحالة في تاريخ الاسلامي، دراسة تاريخية، دار الزينة للطباعة النشر، القاهرة، 2014، ص156.

(2) سمير انساع، الرحلة الى المشرق في الأدب الجزائري، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، 2009 م، ص87.

د. أدب الرحلة: توثيق المخاطر

هذه المخاطر هي التي أنتجت لنا ما يُعرف بـ "أدب الرحلات"؛ فكتب مثل "رحلة ابن جبير" و"رحلة العبدري" لم تكن لتكتب لولا تلك المشاق التي دفعتهم لتدوين ملاحظاتهم عن أمن الطرق، وعادات الشعوب، ونظم الإدارة في المدن التي مروا بها، فصارت هذه المخاطر "منحة علمية" للأجيال اللاحقة⁽¹⁾.

خلاصة المبحث الثاني: إن المسافات الشاسعة والمخاطر المحدقة لم تفتّ في عضد العلماء المغاربة، بل جعلت من "الرحلة" معياراً للصدق في طلب العلم. فالعالم الذي يجتاز هذه الفيافي والبحار ليصل إلى مكة أو بغداد، يعود إلى وطنه وقد نضجت شخصيته الإنسانية بقدر نضج ملكته العلمية.

المبحث الثالث: مجالات التبادل العلمي وأثرها في البنية الفكرية: لم تقتصر الرحلة العلمية على نقل الكتب والمصنفات، بل كانت عملية "تلقيح فكري" مستمرة، أنتجت تطوراً مذهلاً في بنية العلوم الإسلامية. وقد شمل هذا التبادل ثلاثة مجالات كبرى:

1- العلوم النقلية: (الفقه، الحديث، والتفسير)

تمثل العلوم النقلية الرابطة الأقوى في حركة التبادل؛ فقد كان المشرق هو "منبع النص"، بينما كان المغرب هو "مختبر التطبيق" ومركز النبوغ في استنباط الفروع.

أ. انتقال وتوطين المذهب المالكي (من المدينة إلى فاس):

شكل المذهب المالكي جسراً فريداً بين المغرب والحجاز.

(1) عبد العزيز بن عبد الله، الرحلات من المغرب و إليه، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب، ط 1، 2001، ص 67.

• الرحلة إلى "الأصل": بدأت الرحلة منذ عهد الإمام مالك، حيث شد طلاب المغرب والأندلس (مثل عيسى بن دينار وسحنون بن سعيد) الرحال إلى المدينة المنورة. لم ينقلوا الفقه كـ "نصوص" فقط، بل نقلوا "عمل أهل المدينة"، مما جعل المغرب يتبنى المذهب المالكي كمرجعية رسمية ووحيدة، محققاً بذلك وحدة مذهبية لم تعرفها بقية أقاليم الإسلام.

• تصدير الفروع: بمرور الوقت، نبغ المغاربة في "علم النوازل" و"القواعد الفقهية"، وأصبحت كتب المتأخرين من المغاربة (مثل مختصرات ابن الحاجب و خليل) تُدرس في الأزهر والحرمين، مما يعني أن المغرب بدأ "يُصدّر" الفقه المصنف للمشرق بعد أن استورده خاماً⁽¹⁾.

ب. علم الحديث: صيانة الأسانيد ونقد المتن:

كانت الرحلة العلمية هي الضمانة لصحة "السنة النبوية" وتداولها.

• البحث عن الإسناد: كان المشرق (بغداد، نيسابور، دمشق) هو المستقر لأصحاب الأسانيد العالية في "الصحيح". رحل علماء المغرب (مثل ابن عبد البر والحافظ السلفي) لمقابلة النسخ وتصحيحها.

• المدرسة المغربية في النقد: تميز المغاربة بـ "الضبط والإتقان"؛ فبينما اهتم المشاركة بجمع الطرق، اهتم المغاربة بـ "نقد المتن" والترجمة للرجال. ويعد

(1) علي جمعة محمد، المدخل الدراسات المذاهب الفقهية، دار السلام، القاهرة، ط 1، 1424هـ/2004م، ص 27.

كتاب "الشفا" للقاضي عياض ثمرة هذا التمازج، إذ جمع فيه بين النص الحديثي المشرقي والتحليل العقدي المغربي، وطبقت شهرته آفاق المشرق⁽¹⁾.

ج. التفسير وعلوم القرآن: وحدة المنهج:

ساهمت الرحلة في توحيد "الفهم القرآني" عبر القارات.

• انتقال القراءات: رحل علماء المغرب لضبط "القراءات السبع" في مكة والقاهرة، وعادوا بها ليجعلوا من المغرب قلعة لحفظ القرآن وضبط رسمه (الرسم العثماني)، وهو ما نراه اليوم في تميز "المصحف المغربي".

• التفسير المقارن: من خلال الرحلة، اطلع علماء المغرب على تفاسير المشرق (مثل تفسير الطبري والزمخشري)، ودمجوها مع رؤاهم المقاصدية، مما أنتج تفاسير مغربية موسوعية (مثل تفسير القرطبي) الذي يُعد اليوم المرجع الأول في أحكام القرآن في المشرق والمغرب على حد سواء⁽²⁾.

د. أثر الرحلة في "وحدة المصطلح":

بفضل هذا التبادل المستمر في العلوم النقلية، توحد "المصطلح العلمي"؛ فأصبح الفقيه في مراكش يستخدم نفس المصطلحات الأصولية والحديثية التي يستخدمها

(1) عمر الحميدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، ط. 1، 1993، ص 98.

(2) محمد المختار محمد النامي، المذهب المالكي مدارس ومؤلفاته وخصائصه وسماته، مركز زايد للتراث والنشر، الامارات العربية المتحدة، ط. 1، 2002م، ص 74.

الفقيه في بغداد، مما منع نشوء "جزر لغوية" أو "انعزال فكري"، وحافظ على عالمية الثقافة الإسلامية.⁽¹⁾

خلاصة هذا القسم: لقد أثبتت العلوم النقلية أن الرحلة العلمية لم تكن مجرد "سفر لطلب العلم"، بل كانت عملية "تأمين حضاري" للدين؛ حيث صُمِنت وحدة المصدر (القرآن والسنة) ووحدة المنهج (المذهب المالكي والأصول)، وجعلت من المغرب حارساً أميناً لتراث المشرق.

2- العلوم العقلية: (الطب، الفلك، والرياضيات)

لم تقف الرحلة العلمية عند حدود المتون الدينية، بل تجاوزتها إلى علوم "المعقول" التي كانت تتطلب احتكاكاً مباشراً، وتجارب سريرية، وملاحظات فلكية دقيقة.

أ. الطب والصيدلة: تلاقح المناهج وتوطين الخبرات

كانت الرحلة العلمية وسيلة لنقل النظريات الطبية من مراكزها الكبرى (بغداد والقاهرة) إلى المغرب، ثم تطويرها وإعادة بنائها بصورة أكثر نضجاً.

• الأثر المشرقي: استلهم أطباء المغرب (مثل ابن زهر وابن رشد) أصول

الطب من مصنفات الرازي وابن سينا المشرقية، والتي جلبها الرحالة في

(2)

حقائبهم .

• البصمة المغربية المهاجرة: تميز المغرب والأندلس بـ "الطب التجريبي"

وعلوم النبات (الصيدلة). فرحل علماء مثل ابن البيطار من الأندلس والمغرب

إلى المشرق، وجاب الديار المصرية والشامية لجمع الأعشاب وتصنيفها، وأصبح

(1) علي جمعة محمد، المدخل الدراسات المذاهب الفقهية، مرجع سابق، ص 47.

(2) محمد جابر الأنصاري التفاعل الثقافي بين المغرب، مرجع سابق، ص 123.

"رئيساً للعشابين" في القاهرة، وكتابه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" صار الدستور الطبي الأول في مشافي المشرق والمغرب⁽¹⁾.

ب. علم الفلك: الجداول الكونية العابرة للحدود
ارتبط علم الفلك بالعبادات (تحديد القبلة ومواقيت الصلاة)، مما جعله مادة أساسية للحالة.

• تبادل الأزياج (الجداول الفلكية: (كان الرحالة المغاربة ينقلون "أزياج" الفلكيين المشاركة (مثل البتاني والخوارزمي)، ثم يقومون بتعديلها في مراصدهم بمراكش وفاس لتتاسب خطوط العرض المغربية.

• الآلات الفلكية: ساهمت الرحلة في نقل تقنيات صناعة "الأسطرلاب" وتطويرها. وقد برع المغاربة في تبسيط هذه الآلات المعقدة، وظهر أثر ذلك في رحلاتهم البحرية والبرية التي وثقوها بآلات فلكية متطورة جلبت أصولها من بغداد وصُورت بأيدي مغربية⁽²⁾.

ج. الرياضيات والحساب: ثورة الأرقام العربية
لعبت الرحلة العلمية دوراً حاسماً في توحيد "لغة الأرقام" في العالم الإسلامي:
• الأرقام الغبارية: كان لعلماء المغرب (مثل ابن البناء المراكشي) فضل كبير في تطوير علم الحساب والجبر. ومن خلال رحلات التبادل، ساهموا في

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الاسلام في الاندلس عصر المرابطين و الموحدين، ج 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1990م، ص25.

(2) المرجع السابق، ص29.

نشر "الأرقام الغبارية" (التي نستخدمها اليوم في المغرب والمشرق والغرب) في مقابل الأرقام الهندية التي كانت شائعة في بعض أجزاء المشرق.

- تطوير علم الجبر: انتقلت أصول الجبر من مدرسة الخوارزمي في بغداد إلى المغرب، حيث طوّرها المغاربة وأضافوا إليها تطبيقات في علم المواريث (الفرائض)، وهي البضاعة العلمية التي كان يحملها الفقيه-الرياضي المغربي عند رحيله للمشرق، ليدهش بها علماء الأزهر والشام⁽¹⁾.

د. المنهج التجريبي: من النظري إلى التطبيقي
أهم نتيجة لهذا التبادل في العلوم العقلية هي "وحدة المنهج التجريبي". فالمغربي الذي رحل إلى المشرق لم يكن يكتفي بسماع المحاضرات، بل كان يزور "البيمارستانات" (المستشفيات) و"المراصد"، وينقل تلك النظم الإدارية والعلمية ليعيد بناءها في فاس ومراكش، مما خلق بيئة علمية "عقلانية" متصلة عبر القارات⁽²⁾.

خلاصة هذا القسم: أثبتت العلوم العقلية أن "العقل العربي الإسلامي" كان يعمل ككتلة واحدة؛ فالمشرق وضع الأسس والنظريات، والمغرب أضاف النفس التجريبي والتحليل الفلسفي. هذا التبادل لم يخدم المسلمين فحسب، بل كان هو

(1) إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم، مرجع سابق، ص84.

(2) المرجع السابق، ص88.

الجسر الذي عبرت منه هذه العلوم لاحقاً إلى أوروبا، حاملةً بصمات علماء رحلوا من مراكش ليسكنوا القاهرة، وآخرين رحلوا من بغداد ليدرسوا في فاس.

3- التصوف والزهد: (المفاهيم الروحية والطرق)

لم يكن التصوف في رحلات المغاربة مجرد انقطاع عن الدنيا، بل كان "سلوكاً" معرفياً يهدف إلى تزكية النفس وتعميق الرابطة مع المشرق كمنبع للأنوار النبوية. أ. انتقال المدارس الصوفية المشرقية إلى المغرب:

في البدايات، تأثر المغرب بمدرسة بغداد (التصوف السني المعتدل) ومدرسة خراسان.

- مدرسة الجنيد البغدادي: رحل أوائل الزهاد المغاربة لنهل التصوف من منبعه السني في العراق، ونقلوا معهم "مذهب الجنيد" الذي يقوم على ضبط الرقائق بالكتاب والسنة. هذا التأصيل هو الذي جعل التصوف المغربي يتسم بـ "الاعتدال الفقهي"، حيث أصبح شعار المغرب: "مذهب مالك، وعقيدة الأشعري، وطريقة الجنيد."

- أثر "إحياء علوم الدين": لعبت الرحلة دوراً حاسماً في إدخال فكر الإمام الغزالي إلى المغرب؛ فرغم المعارضة السياسية الأولية (في عهد المرابطين)، إلا أن الرحالة والمهاجرين استمروا في نقل كتبه التي مزجت بين الفقه والتصوف، مما غير البنية الروحية للمجتمع المغربي في عهد الموحدين وما بعده⁽¹⁾.

ب. مدرسة "أبو مدين الغوث": رحلة التأسيس والجمع:

(1) أحمد بن سودة، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ج 2، دار الأمير، بيروت، ط 1، 1995م، ص 78.

يعد الشيخ أبو مدين شعيب الغوث (ت 594هـ) أنموذجاً حياً لهذا التبادل.

- الرحلة شرقاً: رحل من المغرب إلى مكة، ولقي في طريقه كبار العارفين (مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني في مكة)، واستوعب التصوف المشرقي بأبعاده المختلفة.

- العودة والتأثير: عاد ليُوطن مدرسة صوفية فريدة في "بجاية" وتلمسان، تميزت بـ "العمل" و"الجهاد" و"خدمة الخلق". أصبحت طريقته هي "الأم" لغالبية الطرق الصوفية في المغرب، بل وامتد أثره ليعود مرة أخرى إلى المشرق عبر تلاميذه.⁽¹⁾

ج. الهجرة المعاكسة: أقطاب المغرب في وجدان المشرق:

من أعظم نتائج التبادل الصوفي أن المشرق، وهو منبع التصوف، استقطب "نوابغ التصوف المغربي" الذين استوطنوا فيه وأصبحوا من أعظم أوليائه.

- أبو الحسن الشاذلي (ت 656هـ): ابن غمارة (المغرب)، الذي رحل إلى تونس ثم مصر، وأسس "الطريقة الشاذلية" التي أصبحت الطريقة الصوفية الأولى في مصر والشام والحجاز.

- السيد البدوي: الذي تعود أصوله إلى المغرب (فاس)، وأصبح قطب الديار المصرية في طنطا.

(1) عبد القادر ريوح، "الرحلة ودورها في التواصل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربي خلال القرن (11هـ/17م)"، مجلة البحوث والدراسات، مج 15، ع 1، 2018م، ص 187.

- ابن عربي (الشيخ الأكبر): الذي انتقل من الأندلس والمغرب ليعيش في دمشق، ويضع أعظم موسوعة صوفية (الفتوحات المكية)، ممتزجاً فيها العقل المغربي بالأسرار المشرقية.⁽¹⁾

د. الزوايا والرباطات كشبكة تواصل:

أدت الرحلة إلى نشوء "شبكة زوايا" عابرة للقارات.

- المأوى والأمن: كانت الزوايا الصوفية الممتدة من مراكش إلى بغداد توفر "المأوى المجاني" للعلماء والرحالة، مما سهل استمرار حركة التبادل العلمي دون خوف من الفقر أو الضياع.

- وحدة الوجدان: بفضل هذه الطرق، أصبح المريد في "زاوية" بفاس يقرأ نفس الأوراد ويتبع نفس المنهج الروحي الذي يتبعه مريد في "خانقاه" بالقاهرة، مما رسخ الوحدة الثقافية العميقة للأمة رغم انقسامات السلاطين.⁽²⁾

خلاصة المبحث الثالث: لقد أثبت التبادل في مجالات (النقل، والعقل، والروح) أن الحضارة الإسلامية كانت "دورة دموية واحدة". فالمغربي لم يكن يرحل ليأخذ فقط، بل كان يرحل لـ "يضيف" ويُجود ويؤسس. لقد كانت الرحلة العلمية هي التي منعت جفاف العقل المشرقي وحمت المغرب من الانعزال، لينتج عن ذلك "هوية علمية موحدة" هي مفخرة العصور الوسطى.

(1) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط14، 1996، ص234.

(2) المرجع السابق، ص 249.

المبحث الرابع: نماذج رائدة من العلماء الرحالة (دراسة حالة)
تمثل نماذج العلماء الرحالة الدليل القاطع على حيوية التبادل العلمي؛ إذ لم تكن رحلاتهم مجرد رصد للمشاهدات، بل كانت صياغة للهوية العلمية المشتركة.

1- القاضي عياض السبتي (ت 544هـ): سفير المذهب والحديث
يُمثل القاضي عياض الذروة التي وصل إليها العقل المغربي في العصور الوسطى؛ فهو لم يكن مجرد فقيه إقليمي، بل كان "مؤسسة علمية متقلة" استطاعت أن تفرض هيبتها العلمية من سبتة إلى بغداد⁽¹⁾.

أ. التكوين العلمي والرحلة ب "الواسطة":
من المفارقات التاريخية أن القاضي عياض لم يرحل جسدياً إلى المشرق (على خلاف معظم أقرانه)، لكنه يُعد "أكبر رحالة علمي" من حيث التحصيل والأسانيد.
• الرحلة الأندلسية: رحل إلى قرطبة وهي يومئذ حلقة الوصل الكبرى مع المشرق، فلقى كبار الشيوخ الذين جلبوا علوم الحجاز والعراق.

• جمع الأسانيد: استطاع عياض عبر المراسلة ولقاء الرحالة المشاركة والمغاربة العائدين من الحج أن يجمع أسانيد المشرق قاطبة، حتى صار يُقال: "لولا عياض لما عُرف المغرب"، ولولا أسانيده لانقطعت حبال كثيرة بين ضفتي العالم الإسلامي.

ب. سفير المذهب المالكي (من الفروع إلى الأصول):
لعب عياض دوراً حاسماً في "تطوير" المذهب المالكي ليكون مذهباً عالمياً.

(1) القاضي عياض، عياض بن موسى (ت 544هـ): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، مطبعة فضالة، المغرب، مقدمة المحقق، ص 33.

*كتاب "ترتيب المدارك": في هذا الكتاب، لم يكتفِ عياض بترجمة علماء المغرب، بل ربط المذهب بأصوله في المدينة المنورة وعلماء المشرق، مما خلق "وحدة مذهبية" صلبة جعلت مالكية المغرب والمشرق يتحدثون لغة فقهية واحدة.⁽¹⁾

• الدفاع عن المنهج المغربي: استطاع من خلال مكانته العلمية أن يُثبت للمشاركة أن مدرسة المغرب والأندلس ليست مجرد ناقلة، بل هي مدرسة "نقد وتحقيق".

ج. كتابه "الشفاء": الجسر الوجداني بين الصفتين:
يُعد كتاب "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى" أعظم وثيقة تبادل ثقافي في العصر الوسيط.
• عالمية الكتاب: بمجرد تأليفه، طار الكتاب إلى المشرق، ودخل كل بيت ومسجد من القاهرة إلى دمشق وصولاً إلى الهند.

• الأثر: وُحّد هذا الكتاب الوجدان الإسلامي حول شخصية النبي ﷺ، وأصبح المحدثون في المشرق يرحلون للحصول على "إجازة في الشفاء" من تلاميذ عياض بالمغرب، فكانت هذه "رحلة معاكسة" من المشرق إلى المغرب طلباً لعلم عياض.⁽²⁾

د. القاضي عياض كمرجع في علم الحديث:

(1) المرجع السابق، ص 45.

(2) القاضي عياض، عياض بن موسى (ت 544هـ): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، مرجع سابق، ص 49.

في كتابه "مشارك الأنوار على صحاح الآثار"، قدم عياض خدمة جليلة لصححي البخاري ومسلم والموطأ.

• ضبط النص: قام بفك غريب الألفاظ وضبط الأسماء، وهو جهد لم

يسبقه إليه أحد في المشرق بهذا الشمول، مما جعل مشاركة الإسلام

يقرون له بالسيادة في "علوم الضبط" والتقييد⁽¹⁾.

خلاصة هذا القسم: إن القاضي عياض يثبت أن التبادل العلمي لا يحتاج دائماً إلى انتقال الأجساد، بل إلى قوة "النتاج المعرفي". لقد كان عياض هو "السفير الدائم" للمغرب في المشرق، وبفضله اعترف علماء المشرق بنضوج المدرسة المغربية واستقلالها المنهجي، مما مهد الطريق لسيادة الفكر المغربي في فترات تاريخية لاحقة.

2- ابن جبير وابن بطوطة: الجغرافيا في خدمة الاجتماع العلمي
إذا كان الفقهاء قد نقلوا "النصوص"، فإن ابن جبير وابن بطوطة قد نقلوا "السياق" الذي يعيش فيه العلم، فوثقا دور المدارس، والمستشفيات، والأوقاف، والحياة اليومية للعلماء.

أ. ابن جبير (ت 614هـ): عين المغرب على مؤسسات المشرق
تمثل رحلة ابن جبير الأندلسي المغربي وثيقة "سوسيولوجية" نادرة للمشرق في عهد صلاح الدين الأيوبي⁽²⁾.

(1) المرجع السابق، ص 51.

(2) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت 614هـ): رحلة ابن جبير، دار الشرق العربي، بيروت، ص 34.

• توثيق المدارس والرباطات: كان ابن جبير دقيقاً في وصف النظام التعليمي في الإسكندرية والقاهرة ودمشق. نقل للمغاربة تفاصيل "نظام الأوقاف" الذي كان يضمن للطالب المأكل والملبس والسكن، مما حفز سلاطين المغرب لاحقاً (كالمرينيين) على محاكاة هذا النظام في بناء المدارس الكبرى بفاس.

• المشاهدة العلمية: لم يكتفِ بالوصف الجغرافي، بل وصف "حلقات الوعظ" ومناظرات العلماء في الجامع الأموي، مما أعطى لعلماء المغرب تصوراً حياً عن "آداب البحث" المشرقية.

ب. ابن بطوطة (ت 779هـ): "رائد الأنثروبولوجيا العلمية" تجاوز ابن بطوطة الطنجي حدود العالم الإسلامي التقليدي، ليكون "سفيراً كونياً" للمدرسة المغربية⁽¹⁾.

• رصد شبكة العلماء العابرة للقارات: في رحلته التي استمرت قرابة ثلاثين عاماً، وثق ابن بطوطة كيف كان العالم المغربي يُستقبل كـ "خبير" في القضاء والشرع في الهند وجزر المالديف وأعماق إفريقيا. هذا الرصد أثبت قوة "الهوية العلمية الموحدة" التي كان البحث بصدد إثباتها.

(1) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997، المقدمة، ص14.

- التواصل مع النخب المشرقية: وصف لقاءاته بكبار القضاة والفقهاء في مكة وبغداد، ونقل تقاليدهم في "الخلعة" (لباس العلماء) ومراسم التدريس، مما جعل رحلته مرجعاً لفهم "البروتوكول العلمي" المشترك بين الضفتين⁽¹⁾.

ج. أثر الرحلة الجغرافية في "التطوير الإداري للعلم":
ساهمت تدوينات هذين الرحالتين في:

- نقل الأفكار التنظيمية: عاد العلماء المغاربة بأفكار حول كيفية تنظيم المكتبات العامة (خزائن الكتب) وتوفير الرواتب للمدرسين، بناءً على ما وصفه ابن جبير في دمشق والقاهرة.
- توسيع الأفق الجغرافي للطلاب: جعلت هذه الرحلات الطالب المغربي يدرك أن "طلب العلم" لا يتوقف عند حدود الحجاز، بل يمتد إلى آفاق أرحب، مما زاد من وتيرة التبادل الثقافي.

د. الرحلة كوثيقة تاريخية للتبادل:

بفضل ابن جبير وابن بطوطة، لم يعد التاريخ العلمي مجرد أسماء شيوخ وتلاميذ، بل أصبح تاريخاً لـ "الحضارة العلمية" بمبانيها، وأوقافها، وصراعاتها الفكرية،

(1) فهم، حسين محمد، أدب الرحلات، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت، (1989)، ص12.

وبيئتها المادية. لقد قدما "الجغرافيا" كخادم لـ "الاجتماع العلمي"، مما جعل الرحلة المغربية هي الأكثر نضجاً وتوثيقاً في التراث الإنساني⁽¹⁾.

خلاصة هذا القسم: لقد أثبت ابن جبير وابن بطوطة أن العالم المغربي كان يمتلك "رؤية نقدية"؛ فهو لا يرحل ليزوب في المشرق، بل يرحل ليرصد، ويقارن، ثم يعود ليُطور بيئته المحلية. بفضلهما، أصبح المشرق بالنسبة للمغاربة "كتاباً مفتوحاً" لا يُقرأ فقط في المتون، بل يُشاهد في الواقع الاجتماعي.

3. علماء المشرق في المغرب: الاستيطان وأثره في النهضة
لم يكن التبادل العلمي طريقاً ذا اتجاه واحد؛ بل شهد المغرب والأندلس تدفقاً مستمراً للعلماء المشاركة، إما بدعوة من السلاطين، أو فراراً من اضطرابات المشرق (مثل الغزو المغولي والحروب الصليبية)، أو رغبةً في نشر المعارف في بيئة مغربية كانت متعطشة لكل جديد⁽²⁾.

أ. نقل "الخبرة المنهجية" البغدادية والمصرية:
كان لاستيطان العلماء المشاركة أثر الفضل في نقل "آليات التدريس" المتطورة.
• أبو علي القالي (ت 356هـ): (الذي قدم من بغداد إلى الأندلس والمغرب، حاملاً معه أسرار اللغة والأدب والنحو البغدادي. لم ينقل الكتب فحسب، بل نقل "طريقة الإملاء" والمناظرة، مما أحدث نقلة نوعية في الدرس

(1) جمال الدين فالح الكيلاني، الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي، القاهرة، دار الزينة للطباعة والنشر، ص34.

(2) خديجة طاهر منصور، "العلماء المشاركة ببلاد المغاربة ودورهم في الحركة الفكرية"، شهادة دكتوراه في التاريخ الوسيط، وهران، 2019م، ص58.

اللغوي بالمغرب، جعلت المغاربة ينافسون المشاركة في جودة لسانهم العربي⁽¹⁾.

• المحدثون والمقرئون: استقرت بيوتات مشرقية في فاس وتلمسان، ونقلت معها أساليب "الضبط والإتقان" في تلاوة القرآن وعلوم الحديث، مما ساعد على نشوء مدارس مغربية متخصصة تنافس مدارس القاهرة ودمشق.

ب. الاستيطان القسري وأثره (نخبة الأزمات):
في فترات ضعف المشرق وتعرضه للهجمات، وجد العلماء في المغرب "الملاذ الآمن":

• هجرة علماء الأصول والكلام: ساهم المستوطنون المشاركة في إدخال "علم الكلام الأشعري" وتفصيلاته الأصولية إلى المغرب، خاصة في عهدي المرابطين والموحدين. هذا الاستيطان ساعد العقل المغربي على الانتقال من "الفقه الفروعي" المجرد إلى "الفقه الأصولي" القائم على الدليل والبرهان⁽²⁾.

• التأثير في الإدارة والسياسة: لم يقتصر أثرهم على حلقات الدرس؛ بل استوزر سلاطين المغرب (مثل يعقوب المنصور الموحدي) علماء

(1) خديجة طاهر منصور، "العلماء المشاركة ببلاد المغاربة ودورهم في الحركة الفكرية"، مرجع سابق، ص 62.

(2) المرجع السابق، ص 63.

مشاركة، واستفادوا من خبراتهم في تنظيم الدواوين والقضاء، مما جعل الدولة المغربية تكتسب مسحة إدارية مشرقية متطورة.

ج. أثر الاستيطان في إثراء المكتبات والخط العربي:

حمل المستوطنون المشاركة معهم "ذخائر المخطوطات":

- إدخال الخطوط المشرقية: ساهم الخطاطون والوراقون المشاركة المستوطنون في تطوير "الخط المغربي" وتجويده عبر الاحتكاك بالخطوط النسخية والثلث المشرقي، مما أنتج مصاحف مغربية نادرة تجمع بين جماليات الضفتين.

- تأسيس الخزائن: كثير من العلماء المشاركة الذين استوطنوا تلمسان أو فاس أوقفوا مكتباتهم الضخمة على جوامعها، مما وفر للباحث المغربي مراجع لم يكن ليجدها إلا في رحلة شاقة إلى بغداد⁽¹⁾.

د. الاندماج والتحول إلى "مغاربة الهوى":

من أبهى صور التبادل أن هؤلاء العلماء المشاركة سرعان ما اندمجوا في النسيج المغربي؛ فأصبحوا يدافعون عن المذهب المالكي، ويؤلفون في تاريخ المغرب، وينافسون أهل البلاد في الانتماء لتربتها، مما أثبت أن "الهوية العلمية" كانت أقوى من "الهوية الجغرافية"⁽²⁾.

(1) عبد الله بن علي بن حضران الحارثي، "الرحلة في طلب العلم عند بعض المرينيين المسلمين في العصر العباسي وتطبيقاتها التربوية"، بحث مكمل للحصول على الماجستير، المملكة العربية السعودية، ص154.

(2) محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق، مرجع سابق، ص87.

خلاصة المبحث الرابع: إن استيطان العلماء المشاركة في المغرب كان بمثابة "الحقن المستمر" للعقل المغربي بعلوم الأصول والأدب، مما منع الركود الفكري. لقد تحول المغرب بفضل هؤلاء الوافدين من "أطراف" للعالم الإسلامي إلى "قلب" نابض، وصارت حواضره (فاس، مراكش، تلمسان) منافسة لبغداد والقاهرة في جودة التعليم واستقرار المنهج.

المبحث الخامس: مظاهر التأثير والتأثر والنتائج الحضارية
لم تكن الرحلة العلمية مجرد حراك بشري، بل كانت عملية "بناء مؤسسي" أدت إلى نتائج حضارية باقية. في هذا المبحث، نرصد تجليات هذا التأثير في مجالات المخطوطات، والتعليم، والوحدة الهوياتية.

1- المكتبات والمخطوطات: حركة التداول المعرفي
مثّلت المخطوطات الوسيلة الوحيدة لتدفق الأفكار، وقد لعبت الرحلة العلمية دور "الشریان" الذي يضخ هذه الدماء المعرفية من حواضر التأليف في المشرق إلى مراكز التوطين في المغرب⁽¹⁾.
أ. الرحالة كـ "موردين" للثقافة:

كان العالم المغربي يرحل إلى المشرق وبصحبه قائمة بـ "أمهات الكتب" التي لا توجد في بلاده.

- جلب الأصول: عاد علماء مثل ابن خير الإشيلي والقاضي عياض (عبر شيوخه) بحمولات ثقيلة من الكتب المشرقية. لم يكن الجلب عشوائياً، بل كان يركز على الكتب التي تمثل "أعمدة العلم"، مثل كتب الحديث الستة، وتقاسير الطبري والزمخشري، ومؤلفات الغزالي.

(1) محمد جابر الأنصاري، التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق، مرجع سابق، 89.

- السبق العلمي: بفضل هؤلاء الرحالة، كانت الكتب الجديدة المؤلفة في بغداد أو القاهرة تصل إلى المغرب والأندلس في غضون سنوات قليلة من تأليفها، وهي سرعة مذهلة بالنظر إلى وسائل النقل آنذاك⁽¹⁾.

- ب. الاستنساخ والمقابلة: ضمان الجودة المعرفية:
لم يكن التبادل مجرد نقل مادي، بل كان عملية "تحقيق علمي" دقيقة.
- مجالس الإماء والنسخ: كان الطلاب المغاربة في القاهرة ودمشق يقضون ليلاتهم في استنساخ الكتب، ثم يقومون بـ "المقابلة"، وهي قراءة النسخة المغربية على الشيخ المشرقي (صاحب الأصل) لضمان خلوها من الخطأ والتحريف⁽²⁾.

- ظاهرة "السماعات": نجد في هوامش المخطوطات القديمة "تقييدات" تثبت أن هذا الكتاب نُسخ في بغداد، وقُوبل في مكة، وصُحح في فاس، مما جعل المخطوطة الواحدة "وثيقة سفر" تسجل تاريخ التبادل العلمي بين الضفتين⁽³⁾.

ج. ازدهار صناعة الوراقة والمكتبات الكبرى:
أدى هذا التدفق المعرفي إلى نشوء "بنية تحتية" ثقافية في المغرب:

(1) شوقي ضيف، الرحلات، الناشر، دار المعرفة، القاهرة، ط4، 1991، ص34.

(2) عمر الحميدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، ط. 1، 1993، ص98.

(3) المرجع السابق، ص99.

• خزائن الكتب :تأسست في المغرب مكتبات كبرى بفضل مقتنيات الرحالة، مثل "خزانة القرويين" و"خزانة ابن يوسف"*. هذه الخزائن لم تكن تضم كتباً مغربية فحسب، بل كانت تضم نفائس مشرقية لا توجد نسخها الأصلية اليوم إلا في المغرب.

• سوق الوراقين :ازدهرت مهنة الوراقة (النسخ والتجليد) في مراكش وفاس، حيث كان الوراقون يتنافسون في نسخ الكتب المشرقية بخطوط مغربية أنيقة، مما جعل الكتاب متاحاً لطلاب العلم الذين لم يتمكنوا من الرحلة⁽¹⁾.

د. "الرحلة المعاكسة" للمخطوطات المغربية:
كما استورد المغرب كتب المشرق، بدأ المشرق يستورد "الإبداع المغربي".
• مؤلفات المغاربة في المشرق :كتب مثل "الشفاء" للقاضي عياض، و"مختصر خليل" في الفقه، و"تفسير القرطبي"، انتقلت عبر القوافل لتصبح من أهم المخطوطات التي تدرس وتنتسخ في الجامع الأزهر ومساجد الشام، مما أحدث توازناً في "ميزان التبادل المعرفي".⁽²⁾

خلاصة هذا القسم :لقد نجحت حركة نقل واستنساخ المخطوطات في خلق "وحدة فكرية" صلبة؛ فالمغربي والمشرقي كانا يقرآن من نفس الكتاب، وبالنص نفسه،

(1) يوسف بن أحمد حواله، الحياة العلمية في أفريقيا المغرب الأدنى منذ انتهاء الفتح و حتى منتصف القرن الخامس هجري، ج 2 - 1، 2005/ 2006، ص95.

(2) المرجع السابق، ص98.

وبالشروح ذاتها. هذا التداول لم يحفظ التراث من الضياع فحسب، بل جعل من العالم الإسلامي "مكتبة واحدة" كبرى لا تحجزها الحدود ولا تفرقها المسافات.

2- تطور المناهج التعليمية: كيف تشابهت "الإجازات العلمية" ونظم التدريس؟ أدت حركة العلماء الدؤوبة بين المغرب والمشرق إلى "عولمة" المنهج التعليمي، بحيث صار بإمكان الطالب أن يبدأ دراسته في "فاس" ويتمها في "القاهرة" أو "بغداد" دون أن يجد فجوة في طريقة التلقي أو أسلوب الاختبار.

أ. وحدة "نظام الإجازة": الاعتراف الأكاديمي المتبادل

كانت الإجازة هي "الجواز الأكاديمي" الذي يسمح للعالم بالجلوس للتدريس.

• المعايير الموحدة: اتحدت شروط نيل الإجازة بين الضفتين؛ فلا تُمنح إلا

بعد "العرض" (قراءة الطالب على الشيخ) أو "السماع" (قراءة الشيخ والطالب يسمع). هذا التوحيد جعل الإجازة الممنوحة في مكة معترفاً بها فوراً في مراكش، مما خلق "سوقاً علمية مشتركة".

• سلاسل الإسناد: بفضل الرحلة، أصبحت "الإجازة" توثق اتصال السند؛

فالإجازة المغربية كانت تفتخر بذكر الشيوخ المشاركة، مما أعطى للنظام

التعليمي المغربي صبغة "عالمية" وشرعية تاريخية⁽¹⁾.

ب. نظم التدريس: الحلقات والكراسي العلمية

نقل الرحالة المغاربة تقاليد "المدرسة النظامية" ببغداد و"الأزهر" بمصر إلى جوامع المغرب.

(1) خديجة طاهر منصور، العلماء المشاركة ببلاد المغاربة و دورهم في الحركة الفكرية، رسالة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة وهران، 2018م، ص 234.

• كرسي الأستاذية: تشابهت طرق الجلوس للتدريس؛ حيث يُخصص للأستاذ "كرسي" عالي، ويتحلق حوله الطلاب في "حلقات"، مع وجود "المعيد" الذي يُبسط الدرس للطلاب المبتدئين. هذه الهيكلية التنظيمية انتقلت بحذافيرها من المشرق لتستقر في جامع القرويين ومساجد تلمسان.

• أدب المذاكرة: انتقلت تقاليد "المناظرة" و"المذاكرة" بين الأقران، وهي وسيلة تعليمية تفاعلية برع فيها المشاركة ونقلها المغاربة، مما جعل التعليم عملية حوارية لا مجرد تلقين بارد ⁽¹⁾.

ج. توحيد المقررات الدراسية (المتون المعتمدة):
ساهم التبادل في جعل بعض الكتب "دستوراً تعليمياً" عالمياً:
• المتون المشتركة: أصبح "مختصر ابن الحاجب" و"ألفية ابن مالك" و"صحيح البخاري" هي المراجع الأساسية التي لا يتخرج طالب في المشرق أو المغرب إلا بعد ضبطها.

• التكامل المنهجي: بينما كان المشرق يركز على "توسيع الشروح"، تميز المنهج المغربي بـ "الاختصار والتحصيل"، فتلاقح المنهجان لِيُنتجا "الشروح

(1) المرجع السابق، ص249.

والحواشي" التي نضجت بفضل هذا التبادل، وأصبحت تخدم الطالب في كلا الإقليمين⁽¹⁾.

د. الأوقاف التعليمية: حماية استقلال العلم
نقل الرحالة (مثل ابن جبير) فكرة "أوقاف التعليم" من دمشق والقاهرة، حيث تُخصص عقارات وأراضٍ لإنفاقها على الطلاب والمدرسين.
• أثرها في المغرب: تبني سلاطين المغرب هذه الفكرة، فأنشأوا "المدارس" (مثل المدرسة البوعنانية بفاس) التي توفر المسكن والمأكل للطلاب الغريب، مما شجع طلاب المشرق على القدوم للمغرب، تماماً كما كان يفعل المغاربة في رحلاتهم شرقاً.⁽²⁾

خلاصة هذا القسم: إن تشابه المناهج ووحدة نظام الإجازات جعل من العالم الإسلامي "جامعة واحدة" متعددة الفروع. لقد أثبت هذا التطور أن الرحلة العلمية لم تكن مجرد سفر فردي، بل كانت "هندسة مؤسسية" صهرت النظم التعليمية في قوالب موحدة، مما ضمن استمرارية الحضارة الإسلامية وقدرتها على إنتاج أجيال من العلماء يحملون نفس "الجينات العلمية" من الأندلس إلى ما وراء النهر.
3- وحدة اللغة والعقيدة: الصمود في وجه التفتت السياسي

(1) نفس المرجع السابق، ص 233.

(2) محمد المختار محمد النامي، المذهب المالكي مدارسه و مؤلفاته وخصائصه وسماته ، مرجع سابق، ص 35

بينما كانت الخرائط السياسية في المشرق والمغرب تتغير باستمرار بسبب الحروب، والانقلابات، وتعدد الدويلات، كانت الرحلة العلمية تعمل كـ "غراء حضاري" يحافظ على تماسك النسيج المجتمعي تحت مظلة اللغة والعقيدة.

أ. اللغة العربية: من لسان إقليمي إلى لسان حضاري عالمي
لعبت الرحلة العلمية الدور الأكبر في فرض "اللغة العربية" كأداة وحيدة للتفكير والبحث، متجاوزة الحدود الجغرافية.

• تجاوز اللهجات المحلية: بفضل التبادل، لم يكتب العالم المغربي بلهجة أمازيغية أو أندلسية، بل كتب بـ "العربية الفصحى" الجزلة التي يفهمها نظيره في بغداد. الرحلة جعلت العربية لغة "عابرة للقوميات"، فصار الرحالة يجد في كل مدينة يحل بها -من طنجة إلى دمشق- من يتحدث لغته العلمية ببراعة⁽¹⁾.

• السيادة الأدبية: كان الرحالة ينقلون معهم "دواوين الشعر" و"كتب اللغة"، مما وحد الذوق الأدبي؛ فأصبحت "مقامات الحريري" المشرقية تُشرح في فاس، و"ألفية ابن مالك" الأندلسية المغربية تُحفظ في الأزهر، مما خلق "وطناً لغوياً" واحداً.

ب. العقيدة الأشعرية: "بيضة القبان" الفكرية

(1) بشير رمضان النابلسي، الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الاسلامي خلال القرن الرابع هجري /العاشر ميلادي، المدار الاسلامي، بيروت، ط. 1، 2003، ص 43.

ساهمت الرحلة العلمية في توحيد المرجعية العقدية (علم الكلام)، مما منع التشتت المذهبي العنيف.

- توطين المذهب الأشعري: رحل المغاربة إلى المشرق في وقت كانت فيه المدرسة الأشعرية هي السائدة في بغداد ونيسابور، فنقلوها إلى المغرب (خاصة في عهد الموحدين). هذا التبادل جعل عقيدة المسلم في أقصى الغرب هي ذاتها في أقصى الشرق، مما حصّن المجتمع من الانقسامات العقدية⁽¹⁾ الحادة.

- الاعتدال والوسطية: أدت الرحلة إلى نشوء "إجماع علمي عابر للحدود" حول مفاهيم الوسطية، مما جعل الخطاب الديني في القرويين والزيتونة والأزهر خطاباً متسقاً، يرفض الغلو ويحافظ على وحدة الجماعة.

ج. الصمود في وجه التفتت السياسي:

كان العلماء الرحالة هم "المواطنون العالميون" الذين لا يعترفون بحدود السلاطين.

- العلم فوق السياسة: في الوقت الذي كانت فيه الدولة الموحدية في صراع مع قوى مشرقية، أو الدولتين الأموية والعباسية في تنافس، كان العلماء ينتقلون بحرية، ويُستقبلون بحفاوة في كلتا الصفتين. لقد خلقوا "مجتمعاً

(1) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم، دار الفكر العربي، القاهرة، 2009م، ص 93.

علمياً موازياً" لا يتأثر بالحروب، مما ضمن استمرار تدفق المعرفة حتى في أحلك الظروف السياسية.⁽¹⁾

• الرحلة كأداة للمقاومة: في مواجهة الأخطار الخارجية (الصلبيين في المشرق، وحروب الاسترداد في الأندلس)، كانت الرحلة العلمية وسيلة لحشد الهمم وتنكير الأمة بوحدتها العقيدية واللغوية، مما ساعد على الصمود الحضاري لقرون طويلة.

د. الوجدان المشترك (العاطفة الدينية):

رسخت الرحلة "جغرافيا وجدانية" واحدة؛ فالمغربي الذي لم يزر مكة والمدينة كان يراها بعيون الرحالة (ابن جبیر أو العبدري)، مما جعل "المقدس المشرقي" جزءاً من الهوية المغربية، وجعل "الإبداع المغربي" جزءاً من فخر المشرق⁽²⁾.

خلاصة المبحث الخامس: إن وحدة اللغة والعقيدة لم تكن لتتحقق وتصد لولا حركة "الأقدام" و"الأقلام" التي قادها العلماء الرحالة. لقد أثبتت التجربة التاريخية أن السياسة تفرق، ولكن العلم واللغة والعقيدة المشتركة تجمع، وهو ما جعل من الحضارة الإسلامية "كتلة صلبة" استعصت على الانحاء رغم كل العواصف.

خاتمة البحث

بعد هذه الجولة العلمية في رحاب التاريخ الفكري للعلاقة بين المغرب والمشرق في العصور الوسطى، ومن خلال تتبع مسارات الرحالة وتحليل مجالات التبادل،

(1) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطين والموحدين، مرجع سابق، ص 135.

(2) علي إبراهيم الكردي، أدب الترحال في المغرب و الأندلس، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2013، ص 98.

نخلص إلى ختام هذا البحث الذي استعرضنا فيه كيف تحولت "الرحلة العلمية" من مجرد وسيلة لتحصيل المعرفة إلى مؤسسة حضارية كبرى صهرت العالم الإسلامي في بوحدة واحدة.

أولاً: أبرز الاستنتاجات التي توصل إليها البحث

1. كسر العزلة الجغرافية وبناء الفضاء المفتوح: استنتج البحث أن "الرحلة العلمية" لم تكن مجرد انتقال مادي، بل كانت أداة فعالة لتحطيم الحواجز الجغرافية والسياسية؛ حيث نجح العلماء في خلق "فضاء معرفي موحد" جعل من الحواضر الإسلامية (من فاس إلى بغداد) منظومة تعليمية واحدة تتداول الأفكار والنصوص بمرونة مذهلة سبقت مفاهيم العولمة المعاصرة.

2. ندية التبادل الثقافي (تجاوز المركزية الشرقية): (خلص البحث إلى أن العلاقة بين المغرب والمشرق تطورت من "التلقي" في العصور الأولى إلى "التأثير المتبادل" والندية في العصور المتأخرة. فقد أثبتت الدراسة أن المغرب لم يكنف باستيراد العلوم، بل قام بـ "إعادة تصديرها" بعد تهذيبها وتقنينها (كما في إنتاج القاضي عياض وابن رشد والشاذلي)، مما أثرى العقل المشرقي بأدوات نقدية ومنهجية جديدة.

3. الرحلة كصمام أمان للوحدة الهوياتية: توصلت الدراسة إلى أن العلماء الرحالة كانوا هم "حراس الوحدة" الحقيقيين؛ ففي الوقت الذي تمزقت فيه الأمة سياسياً إلى دويلات متنازعة، حافظت الرحلة العلمية على وحدة "اللغة" و"العقيدة"

و"المذهب"، مما منع ذوبان الهوية الإسلامية في الأقاليم البعيدة كالأندلس وأطراف المغرب.

4. مؤسسة التعليم وتوحيد المعايير الأكاديمية: أثبت البحث أن حركة التبادل أدت إلى توحيد "النظام الأكاديمي" (نظام الإجازة، الكراسي العلمية، المقررات الدراسية)؛ مما أوجد اعترافاً متبادلاً بالكفاءة العلمية عابراً للقارات، وهو ما سمح للعالم المغربي بتولي أعلى مناصب القضاء والتدريس في المشرق بكل مرونة.

5. التكامل بين العلوم العقلية والعقلية والروحية: استنتج البحث أن الرحلة لم تكن أحادية الجانب؛ بل أحدثت توازناً فريداً؛ حيث استمد المغرب أصول النقل من المشرق، بينما استمد المشرق من المغرب دقة النقد الحديثي، وعمق الفلسفة العقلية، ونقاء السلوك الصوفي، مما جعل الحضارة الإسلامية "دورة دموية" متكاملة لا يستغني فيها عضو عن الآخر.

6. الدور اللوجستي للدولة في حماية المعرفة: كشف البحث عن الترابط الوثيق بين الاستقرار السياسي (في عهود الإمبراطوريات الكبرى كالمرابطين والموحدين والأيوبيين) وبين ازدهار البحث العلمي؛ حيث كان تأمين الطرق وبناء المدارس والأوقاف هو "الرافعة اللوجستية" التي حولت المبادرات الفردية للرحالة إلى ظاهرة حضارية شاملة.

7. المذهب المالكي كجسر تواصل: برز المذهب المالكي كأهم أداة للربط الوجداني والفكري، حيث حول الحجاز إلى "مركز روحي" دائم للمغاربة، مما ضمن ثبات المرجعية الفقهية في الغرب الإسلامي.

ثانياً: أثر التبادل في حفظ التراث الإسلامي وتطوير العلوم لقد ترك التبادل العلمي بين الضفتين آثاراً عميقة غيرت مجرى التاريخ الثقافي للأمة، ويمكن حصر هذه الآثار في النقاط الجوهرية التالية:

1- الأمان المعرفي وحماية التراث من الضياع: ساهمت "الرحلة العلمية" في خلق نظام تخزين احتياطي (Back-up) للتراث الإسلامي. فبفضل حركة الاستنساخ والنقل الدائم للكتب، نجت آلاف المصنفات من الفناء؛ فما ضاع في المشرق نتيجة الغزو المغولي واحتراق مكتبات بغداد، وُجدت نسخ منه في مكتبات فاس وتلمسان ومراكش. وبالمقابل، فإن ما فُقد في الأندلس والمغرب بسبب الحروب وُجدت أصوله في خزائن القاهرة ودمشق، مما ضمن استمرارية الذاكرة العلمية للأمة.

2- تحقيق "الوحدة المنهجية" وتجويد النص: أدى التبادل إلى ظهور مدرسة "التحقيق والمقابلة". فلم يعد الكتاب يُقبل لمجرد وجوده، بل بفضل الرحالة الذين كانوا يقابلون النسخ المغربية على أصولها المشرقية بحضور المؤلفين أو تلاميذهم. هذا الأثر أدى إلى تنقية التراث من التحريف والتصحيف، ورفع من سوية "الأمانة العلمية" في نقل النصوص، خاصة في علوم الحديث والقراءات.

3- تطوير "الموسوعية" في العلوم:

كان للتبادل أثر حاسم في كسر التخصصات الضيقة. فالاحتكاك بين مدرسة "الأثر" المشرقية ومدرسة "النظر" المغربية أنتج الشخصية الموسوعية؛ فوجد

العالم يرحل فقيهاً ويعود طبيباً وفلكياً، أو يرحل محدثاً ويعود أصولياً وفيلسوفاً. هذا التلاقح هو الذي مهد لظهور نوابغ مثل ابن رشد وابن خلدون، الذين قدموا رؤية علمية شاملة لم تكن لتظهر لولا اطلاعهم على حصيلة الفكر في الضفتين.

4- عولمة العلوم التجريبية (الطب والفلك):

بفضل الرحلة والتبادل، لم تعد العلوم العقلية حبيسة مراكزها الأولى. فقد انتقلت تجارب أطباء المشرق إلى مستشفيات المغرب، وطوّر علماء المغرب "الجدول الفلكية" المشرقية لتتناسب الآفاق الغربية. هذا التراكم المعرفي هو الذي جعل من المغرب والأندلس "الجسر الحضاري" الذي نقل هذه العلوم مطورة ومنقحة إلى أوروبا، مما ساهم في وضع بذور النهضة العلمية العالمية.

5- إثراء التنوع الفكري داخل الوحدة: أدى التبادل إلى إثراء الفكر الإسلامي بـ "تعدد وجهات النظر"؛ فالفقيه المغربي الذي اطلع على مذاهب أهل العراق والشام، عاد بعقلية أكثر تفتحاً ومرونة في الاجتهاد. هذا الأثر ساعد على تطور "فقه النوازل" و"مقاصد الشريعة"***، حيث استفاد علماء المغرب من الاتساع الجغرافي للمشرق لتطوير حلول فقهية تتناسب المتغيرات الاجتماعية والسياسية.

خلاصة القول : إن التبادل العلمي بين المغرب والمشرق لم يكن مجرد ترف فكري، بل كان الضمانة التاريخية التي حفظت للعقل العربي الإسلامي توازنه وحيويته. لقد أثبتت هذه الحركة أن قوة الأمة تكمن في "سيولة المعرفة" وتدفعها، وهو الدرس الذي نحتاجه اليوم لاستعادة النهضة الحضارية المنشودة.

توصية ختامية : يوصي الباحث بضرورة استلهام تجربة "الرحلة العلمية" في واقعنا المعاصر لتعزيز التكامل الأكاديمي بين الجامعات العربية، مؤكداً أن وحدة المعرفة هي المقدمة الحتمية لأي وحدة سياسية أو اقتصادية منشودة.

قائمة المصادر والمراجع

1. إبراهيم حركات ،مدخل الى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9 هـ/ 15 م، ج 1 - 2 دار الرشاد الحديثة ،الدار البيضاء ،ط 1 ، 2000 م- 1421 هـ.

2. ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997، المقدمة.

3. أحمد بن سودة ،الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ،ج 2 ،دار الأمير ،بيروت ،ط 1 ، 1415هـ/ 1995م.

4. أحمد ديب ،المدخل لدراسة الفقه المالكي ،دار ابن حازم ،بيروت ،لبنان ،ط 1 ، 2014.

5. أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص88

6. أحمد شوقي بنين، الرحلة في الأدب العربي: نشأتها وتطورها، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1980م.

7. بشير رمضان النابلسي ،الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الاسلامي خلال القرن الرابع هجري /العاشر ميلادي ،المدار الإسلامي ،بيروت ،ط.1، 2003.

ثالثاً: الدوريات والمجلات العلمية:

8. جمال الدين فالح الكيلاني ،الرحلات و الرحالة في تاريخ الإسلام، دراسة تاريخية ،دار الزنبقة للطباعة النشر، القاهرة ،2014.

9. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط14، 1996م.
10. حسنى محمد حسين، أدب الرحلة عند العرب، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، عمان، 1403هـ-1983م.
11. حسين محمد فهم، أدب الرحلات، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت، (1989)..
12. حسين مؤنس ،معالم تاريخ المغرب والأندلس ،مكتبة الأسرة الأعمال الفكرية ،2004.
13. حسين نصار، أدب الرحلة ، ط1، الشركة المصرية العلمية للنشر، لنجمان، 1991م.
14. حميدي عبد المنعم محمد حسين ،التاريخ السياسي و الحضاري للمغرب و الأندلس في عصر المرابطين ،دار المعرفة الجامعية ،1997.
15. خديجة طاهر منصور، " العلماء المشاركة ببلاد المغاربة ودورهم في الحركة الفكرية"، شهادة دكتوراه في التاريخ الوسيط، وهران، 2018-2019م.
16. سمير انساعد ،الرحلة الى المشرق في الأدب الجزائري ،دار الهدى ،عين مليلة الجزائر ،2009 م.
17. شوقي ضيف، الرحلات، الناشر، دار المعرفة، القاهرة، ط4، 1991249.

18. الطاهر مكي أحمد، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط3، دار المعرفة بالقاهرة، 1987م.
19. عبد العزيز بن عبد الله، الرحلات من المغرب وإليه، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب، ط1، 2001.
20. عبد العزيز بن عبد الله، الرحلات من المغرب وإليه عبر التاريخ، ط1، دار الناشر لمعرفة، الرباط، 2001م.
21. عبد القادر ربوح، "الرحلة ودورها في التواصل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربي خلال القرن (11هـ/17م)"، مجلة البحوث والدراسات، مج 15، ع 1، 2018م.
22. عبد اللطيف الصعيدي عبد الحكم، الرحالة في الإسلام أنواعها وآدابها، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1416هـ-1997م.
23. عبد الله بن علي بن حضران الحارثي، "الرحلة في طلب العلم عند بعض المرينيين المسلمين في العصر العباسي وتطبيقاتها التربوية"، بحث مكمل للحصول على الماجستير، المملكة العربية السعودية.
24. عبد الهادي التازي، رحلات مغربية في المشرق، منشورات وزارة الأوقاف، الرباط، 1994م.
25. عصام الدين الروق القعي، تاريخ المغرب والأندلس، الناشر مكتبة نهضة الشروق، القاهرة، 1984م.

26. العلمي عبد الرحيم، مجتمع مكة في أدب الرحلات المغربية، كلية الأدب والعلوم الانسانية بفاس، المملكة المغربية، 1416م.
27. علي إبراهيم الكردي، أدب الترحال في المغرب و الأندلس، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2013.
28. علي جمعة محمد، المدخل الدراسات المذاهب الفقهية، دار السلام، القاهرة، ط1، 1424هـ/2004م.
29. عمر الحميدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، ط. 1، 1993.
30. عواطف بنت محمد يوسف نواب، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين (11-12هـ)، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1429هـ-2008م.
31. عياض بن موسى (القاضي عياض) (ت 544هـ) :ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، مطبعة فضالة، المغرب.
32. مجلة دعوة الحق : (سلسلة مقالات حول العلاقات الثقافية بين المغرب والمشرق)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.
33. محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1430هـ/2009م.
34. محمد المختار محمد المنامي، المذهب المالكي مدارس و مؤلفاته وخصائصه وسماته، مركز زايد للتراث والنشر، الامارات العربية المتحدة، ط. 1، 1442هـ/2002م.

35. محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث (في جانب الحركة العلمية)، دار توبقال، الدار البيضاء، 1984م.
36. محمد بن أحمد ابن جبير (ت 614هـ): رحلة ابن جبير، دار الشرق العربي، بيروت.
37. محمد جابر الأنصاري ، التفاعل الثقافي بين المغرب و المشرق، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1992م.
38. محمد عبد الله عنان ،دولة الإسلام في الأندلس عصر المرابطين و الموحدين ، ج 1 ،مكتبة الخانجي ،القاهرة ،ط 2 ، 1411هـ-1990م.
39. يوسف بن أحمد حواله ،الحياة العلمية في أفريقية المغرب الأدنى منذ انتهاء الفتح و حتى منتصف القرن الخامس هجري ، ج 2 -2006